

ابتلاء راهب !!

ظلت الدنيا تقبل على جريح حيناً ، وتدبر عنه حيناً آخر ، حتى اعتقد بنو إسرائيل أنه لن تطول به الحال حتى يفلس ، ويترك تجارته ، ويصنف سلعه ، ويتجه وجهة أخرى غير هذه الحرفة التي فشل فيها فشلاً ذريعاً ، ولم يعد يكسب منها قوته ، أو يربح ما يكفيه ليعيش عيش الكفاف ، فهو لا يطمع في أكثر من هذا بحال ..

حقاً ، لقد كانت الدنيا تقبل إليه ، فإذا بالربح ينهال عليه من كل جذب وصوب ، وإذا بتجارته تنمو وتنمو ، حتى يعتقد أنه بالغ إلى أرقى درجة يبلغها تاجر موفق ، حتى إذا اطمأن إلى هذه الحال ، وألفها إلى حدٍّ ما ، واعتقد أنها ستسير دائماً على هذا المنوال ، رخاء ورغداً ، إذا بها تضيق مرة أخرى ، ولا يكاد يربح شيئاً ؛ بل ينفق من رأس ماله ، حتى يخيل إليه أنه عما قريب سينتهى إلى غير رجعة ولا عودة ..

وهكذا ظلت الدنيا تلعب بعقله وفكره ، حيناً تعطيه ، وحيناً تأخذ منه ما أعطت ، حتى سئم جريح هذه الحياة ، وملّ ذلك العيش الأليم ، وابتدأ يفكر تفكيراً جدياً في حرفة غير التجارة ، تعود عليه بالربح القليل ، حيث يمكنه أن يعيش دون أن يسأل أحداً من الناس ، أو يستجدي لأ كف ، فهذا موقف لا يرضاه ..

ثم هو لا يدري سبباً لعدم توفيقه في تجارته .. إنه رجل أمين ، صادق

وفى" ، يعرف عنه ذلك بنو إسرائيل جميعا ، ويشهدون له بالاستقامة والجد والنشاط ، وعدم التواني فى عمل ما ، كأئنا ما كان هذا العمل .. ثم هو لا يغش أحدا ، وإنما يمتاز بالصراحة فى كل شىء ، ومهما كان الربح طائلا بسبب كتمان عيب فى السلعة التى يبيعها فلا يرضى لنفسه هذا الربح ، وسرعان ما يعترف بما فى السلعة من عيب ، قد يذهب بقيمتها فى كثير من الأحيان .. وماذا يضيره وقد أرضى نفسه وضميره ، وأراح خاطره؟! كل شىء يهون بجانب هذا ، وإن الدنيا فى نظره لا تساوى ما ينفق فى سبيلها من دين وضمير ، ومغالطات أثيمة ، تؤدى بالمرء إلى أسوأ العواقب ، وأوخم النتائج بحيث لا يطيب للإنسان بعد ذلك عيش ، ولا يهنأ بما نال من الدنيا على حساب دينه وضميره .. !!

* * *

وهكذا ترك جريج هذه التجارة التى لا خير فيها ، والتى يرى الغشاشين والمذلسين يربحون فيها ، ويجنون طائل الربح ، بينما هو بصدقه ونصحه ، لا يعرف كيف يعيش وسط هؤلاء ، الذين نالوا من الدنيا أكبر نصيب ، وأوفى حظ مستطاع ..

وأخذ يفكر فى شىء آخر .. فى تجارة أخرى ، فاهتدى إلى لون عجيب من ألوان التجارة لا خسارة فيه ، وإنما كله الربح المحقق ، والكسب الوفير ، والخير الجزيل .. إنها تجارة الآخرة .. !

يا لله ! وكيف غاب عن فكره هذا اللون السامى من التجارة الراجعة من زمن بعيد؟! !

إنها لسنوات طويلة ضاعت من عمره سدى ، وما كان يجدر به أن
تضيع منه ، وما كان يليق به أن يضيعها على هذا الوضع غير الطبيعي ..
وهكذا أقبل جريح على التجارة الأخروية إقبالا عظيما ؛ إقبال
الشخص الذى يعتقد أنه غبن مدة طويلة ، وما يصح أن يغبن ، ونسى شيئا
ما كان يصح أن ينسى ، وأهمل فى خير ما يعمل .. فى أمر الآخرة .. لله
هذه السنوات التى أضاعها سدى ، والله هذا العمر الذى مضى هباء بين جمع
الدرهم والدينار ، مما لم يبق منه فى يده شيء ، على طول ما اكتسب ،
ووفرة ماربح .. وإن الدنيا لتغدر دائما بطالها ، وتريه ألوانا من البلاء ،
قل أن يصبر عليها كثير من الناس ، أو يجدوا من أنفسهم الجلد على
احتمالها ، والصمود لأهوائها ..

* * *

الآخرة .. ما أجمل الآخرة !!

العبادة لله الواحد القهار ..

هنا سأفرغ من الدنيا ، وأفرغ من أهوالها الجسام ، وأعبائها العظام ..
وأقبل على الله ، بارئ النسم ، وخالق الكون ..

ونظر إلى الصومعة الجميلة التى كان بينها فترتفع عن الأرض رويداً
رويداً ، حتى إذا بلغت الارتفاع الذى أراده ، أتمها على خير ما تكون
صومعة عابد ، يجد الراحة فى الإقبال على الله ، والتفرغ لشئون أخراه ، بعد
ما انتهى من أمور دنياه ..

ودخل فى صومعته ، ونظر هنا وهناك ، فإذا به يرى هوان الدنيا ، وحقارتها .. هوانها على الله ، وأنها لا تساوى عنده جناح بعوضة . وحقارة شأنها ؛ لأن الملتجف بها عار ، ولو كان يملكها بأسرها ، والراغب عنها ابتغاء مرضاة الله ناج ، وإن كان لا يملك فيها شروى نقيير ..

هنا إذن موضع العظمة الروحية السامية ، فهنيئاً لك يا جريج ..

وأقبل جريج على الله منذ ذلك الحين ، ونظم صومعته ، ولم يعد له إلى الناس حاجة .. لقد فرغ من دنيا الناس ، والتجأ إلى الحمى المنيع ، والجانب الرفيع ، والجناح الأسمى ..

وتكشفت له آفاق بعيدة ، لم يكن له بها عهد من قبل ، ورأى عوالم سامية ، حزن فى قرارة نفسه أشد الحزن لأنه لم يطلع عليها من قبل ، ونقم على نفسه أشد النقمة لأنه لم يسمع إلى هذا الفضل من أمد بعيد ، وبقي فى تلك الظلمات ، فرحاً بما كان يناله من ربح ومال ..

يا الله ! ما هذه الجدران ؟ إنها لا شىء .. لقد أصبح يرى ما وراءها ، وينظر ما خلفها .. لم تصبح حجاباً يحول بينه وبين المرئيات .. لقد خلى بينه وبين الحجب ، فأى سعادة وراء هذه السعادة ، وأى عظمة يبلغها الإنسان بإقباله على الله تضارع هذه العظمة ؟ ! تباً للذين لا يعلمون كنهه العبادة ، ولا يدركون سر الحياة الروحية ، التى تسمو بالنفوس إلى درجات السكال ، والرقى الذى من أجله خلق الله بنى الإنسان ..

ليس الله في حاجة إلى أموالك ، وما تتمتع به في هذه الحياة من وافر الربح ، وسامى المنصب والجاه ، فقد يكون ذلك كله بلاء يختبرك الله به . . . وليس الله في حاجة إلى عبادتك فليس يعود عليه منها شيء ، وإنما يريد بها منك ، ويأمرك بها لأنها مظهر من مظاهر طاعتك له ، وإقبالك عليه ، وهذا حق من حقوقه ، لأنه خلقك وسوّاك ، وأوجدك من العدم ، ورزقك من حيث لا تدري ولا تشعر ، وهو في كل حين يجزل عليك العطاء ، ويضاعف لك الأجر والثواب ؛ كلما أقبلت عليه ، أو اتجهت إليه ، ولو لحظات قلائل ، من ليل أو نهار .. !!

وتذوق جريج طعم العبادة ، ووجد أثرها في نفسه . بيد أنه كلما مرت به الأيام ، ازداد خوفاً من الله ؛ وخشية منه ، ووجد من نفسه دافعاً يدفعه إلى الازدياد من الطاعة ، والإكثار من العبادة ، والتبتل والخضوع للعلى الكبير ، خالق الأرض والسّموات .. !!

وما أجمل العبد حين تصل به الحال إلى هذه الدرجة ، ويبلغ هذه المنزلة .. إنه يصبح قريباً من الله ، يدعوهُ فيستجيب له ، ويضرع إليه فيرضى عنه ، ويشمله بكرمه الشامل ، وعطفه الغامر ، وخيره الوفير .. فإذا بكل شيء في متناول يده ، لا يستعصى عليه شيء ، ولا يتكأده أمر ولا تخفى عليه خافية ؛ لأنه سيرى بنور الله .. !!

* * *

وكانت أمه تأتي إليه ، وترفع بصرها إليه ، واضعة كفه فوق حاجبها رافعة رأسها ، فيكلمها ويحييها عما تريد ، فترجع فرحة مسرورة بما وصل

إليه ابنها من درجة سامية ، ومنزلة عالية ، وأنه لا بد وأن يكون نال من الله الرضا والقبول .. وما أسعد الأم حينما تدرك أن ابنها سعيد في دينه ، فهي وإن كانت تحب له الدنيا ، إلا أن الدين عندها أولى بالنظر ، وأحق بالتقدير والاعتبار على الدوام ..

ثم جاءت سره ، ورفعت رأسها إليه ، واضعة كفها فوق حاجبها ، وأخذت تدعوه وتناديه ، وكان في هذا الوقت مشغولا بعبادة ربه ، غارقا في تلك الفيوض الإلهية ، حيث تبلغ بالعبد روحانيته أن يغفل عما حوله ، ولا يكاد يذكر شيئا من أمور الدنيا ..

ولكنه أحس بأمه تناديه ، وسمعا تدعوه ، فآثر البقاء مع ربه ، والتمتع بما يفيض عليه من خيرات ، والتلذذ بما يفيض عليه من رحمت ، ويسبغ عليه من تجليات ، معتقداً أن إجابة أمه تحول بينه وبين هذه العبادة وتبعده عن رحمة ربه ، وتغرقه في جو الدنيا الفانية ، التي لا يحب أن يخلد إليها ، أو يقبل عليها .. وألحت أمه في النداء والدعاء ، ولكنه ظل على موقفه كما هو ، مقبلا على ربه ، منصرفا عن نداء أمه ..

وانصرفت أمه حانقة عليه ؛ لأنها تراه في صومعته عابداً مترهباً ، دون أن يعيرها أدنى اهتمام .. كان في مكنته أن يجيبها ، ثم يعود ثانية إلى ربه ، ينعم بقربه ، ويسعد بمناجاته ، فبذلك يكون جامعاً بين رضا ربه ورضا أمه .. أما الآن ، فلقد تغير قلبها قليلا ، وشعرت بالنقمة عليه ؛ لأنه لم يعيرها أدنى اهتمام ..

وجاءت إليه مرة أخرى ، فصادفته في عبادته ، كما صادفته أول مرة ،

وأخذت تناديه وتدعوه ، ولكنه ظل كما هو مقبلا على ربه ، معرضا عنها ،
فألمها ذلك أيضا ، وازدادت نغمتها عليه ..

وجاءت إليه مرة ثالثة ، فصادفته في عبادته كما صادفته في المرتين
السابقتين ، وأخذت تناديه وتدعوه ، ولكن عبثا فعلت ؛ إذ ظل متجها
إلى ربه ، منصرفا عنها ، لا يعيرها أى اهتمام ..

لقد ملك عليه احترامه للعبادة كل عواطفه وأحاسيسه ، فلم يعد في قلبه
مكان لغير هذا الاحترام ، وذلك التقديس .. لقد ظل صوت أمه يدوى
في أذنيه عاصفا حينما كانت تدعوه وتناديه قائلة في ضراعة وحنان :

— يا جريج ، أنا أمك ، كلنى ..

ولكنه لم يكلمها لثالث مرة ؛ إذ كانت كل مرة تصادفه غارقا في
العبادة .. لقد حز هذا في نفسه حزا ، وآلم فؤاده ألما شديداً ، ولكنه لم
يكن في مكنته أن يفعل غير ما فعل ..

بيد أن أمه فارت عواطفها ، وثارت نفسها ، فهتفت رافعة رأسها إلى
السماء ، ضارعة إلى الله ، شاكية إليه جريحا :

— اللهم إن هذا جريج ، وهو ابنى ، وإنى كلمته فأبى أن يكلمنى ..
اللهم فلا تمته حتى تريه وجوه المومسات .. !!

ثم سارت إلى بيتها نائمة ساخطة ، ترضى وتزبد .. !!

ولم يطاوعها قلبها أن تقول أكثر من هذا .. أن يريه وجوه النساء
الزانيات فحسب .. لا يفتن في دينه .. ولا ينصرف عن عبادته .. ولا يعذب

يوم القيامة .. ولا يصيبه مكروه .. لأن هذا كله يؤذيه ويضره ، ويؤلمه
ويرهقه ، وهى لا تريد شيئاً من هذا لأنها أمّ قبل كل شىء .. يكفى جداً
أن يرى وجوه المومسات الزانيات ، وكأنها رأت فى هذا لونا من ألوان
العذاب ، ولكنه عذاب هين يسير ..

ياقلوب الأمهات .. !!

* * *

وطبقت شهرة جريج الآفاق ، وعلم بها من لم يكن يعلم ، وعملت فيها
الشائعات عملها ، بحيث تضخمت إلى حد كبير ، كاد يخرجها عن أصلها ،
فصوّرت جريجاً فى صورة ملك من الملائكة .. لا يعصى الله ما أمره ،
ويفعل ما يؤمر به على طول الخط ، وامتداد الطريق ..

وكان الحديث عنه يدوى فى المدينة دويًا هائلاً ، مما دفع إحدى البغايا
أن تقول لجمع من الناس من بنى إسرائيل ، فى تحدّ ظاهر :
— إن شئتم لأفتننه ..

ونظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقد وقعت هذه العبارة من نفوسهم
موقع الدهشة والعجب ، وأخذت الأفكار تدير هذا القول ، فلا تجد له
معنى ، وأن الفاتنة مهما أبدت من زينتها ، وأظهرت من جمالها ، وأعلنت
من إغرائها ، فلن تجد مجيباً ، ولن تحرك من نفس جريج أبداً .. !!

ولنّ لبعض الأذهان أن يؤمن على قولها ، فمن الممكن جداً أن يتطامن
كبرياء الرجل أمام جمال المرأة ، وأن يخضع أمام فتنتها وإغرائها ، وإن

جربا لن يقاوم إغراء هذه البغى ، ولن يقوى على فتنتها ، وما تبديه من
دلال وسحر عجيب .. !!

ومن عجب أن تجمع آراء هؤلاء جميعا على رأى واحد ، ليروا مبلغ قوة
هذا الرجل ، ودرجة احتماله ، وهل هو من نوع آخر غير الذى يعرفونه فى
الرجال والعُباد ، أم من النوع ذاته ، وأنه من البشر لا يفترق عنهم فى قليل
ولا كثير ، اللهم إلا امتلاكه لنفسه ؛ إلى حد ليس بالعجيب النادر ،
ولا بالمدهش القليل الوجود .. وقالوا جميعا :

— قد شئنا ...

قالوها مجازفين ، والصوت الإلهى ينبعث من جانب الغيب ، إن هذا
الرجل سيجتاز الامتحان بنجاح .. !!
قالوها وكل منهم يبنى نفسه بأن يرى منظراً عجيباً ، يظل حديث
المدينة مدة طويلة ، لا تبلى جدته ، ولا يذهب رواؤه ولا طرافته ..

* * *

واتخذت هذه البغى من أسباب الزينة ، وعوامل الإغراء ؛ ما لم يخطر
لأحد على بال ، فبدأت أقل من عمرها سنوات وسنوات ، وبدأت فى نضارة
الشباب ، وميعة الصبا ، وكادت تحسد نفسها على هذا الجمال الذى ظهرت
فيه ، وتلك الروعة التى تبدت فيها ..

وسارت إلى جريج ، وتعرضت له ، وهى موقنة أنه سيكون طوع
إشارتها ، ورهن إرادتها ، ولكنها ذهلت حينما أعرض عنها فى رثاء

وإشفاق ؛ وكأنما يأسف لهذه العقلية الساذجة ، التي استولت على هذه المرأة الغريزة التي لا تكاد تفهم من الدنيا سوى اللذة والمتعة والشهوة وإرضائها ، والاستجابة لداعى البدن ، ولا شىء غير هذا .

وآلمها ذلك أيما إيلام ؟ فألحت فى الإغراء ، وأمعنت فى الدلال ، وحاولت أن تلتفت نظره إليها ، وتجذب اهتمامه إلى ما تبديه من عوامل الزينة ودوافع الاستجابة لداعى الشيطان ؛ ولكن عبثاً حاولت أن تحرك منه ساكنها ، أو تجدد منه سمياً ، ولم تجد غير الإشفاق والرثاء !! .

لقد طعنت فى كبريائها ، وآلمها أن تنهزم على هذه الصورة النكراء ؛ وأن تعود إلى هذه الطائفة التي تنتظرها ، والتي لا تريد لها لذاتها ، وإنما لتعلم خبر جريج ، وهل تمسكنت من إغرائه حقاً ، والتأثير عليه ، أم أنه أعرض عنها ، ولم تتمكن من قضاء مأربها معه ؟ ! .

وحارت فى أمرها ، واعتقدت أنها لو رجعت على هذه الصورة لسقطت فى أعين زميلاتهما ، اللواتى ينظرن إليها نظرة فيها معنى التقدير ... تقدير جمالها ودلالها ، وأنها أجمل منهن وأكثر دلالة - وسقطت كذلك فى نظر المعجبين بها من شباب بنى إسرائيل ، بحيث يهبط حظها من الجمال فى نظرهم ، وتقل قيمتها ؛ ويتضاءل شأنها .

فماذا تفعل إذن ؟ لا بد أن تنتصر بأى سلاح ... ولا بد أن تثار لنفسها من هذا الذى أهانها ولم ينظر إليها ، وكأنها كمية مهملة .

وما أشق على نفس المرأة من إهمال شأنها ؛ وعدم تقر يظ جمالها !

وبخاصة إذا تعرضت هي للرجل ، وكان غرضها اجتذابه ، لتحظى منه
بوافر المدح ، وعظيم الثناء والإطراء...!!

واتجهت إلى أحد الرعاة ، وكان يرعى غنمها ، ويؤويها إلى أصل
صومعة الراهب جريج ، وتعرضت إلى هذا الراعى فى دلال وإغراء ،
وسرعان ما وقع عليها !! .

وعادت فرحة ظافرة ، تملأ المدينة بنصرها ، وخبر ظفرها ، ولكن
الناس لا يكفيهم ذلك ؛ فربما تكون كاذبة فى قولها ، وبخاصة وأنها
هى التى أبدت هذه الفكرة ، وأظهرت استعدادها لتنفيذها ؛ وأن أسلوبها
حينذاك كان أسلوب تحديّ ظاهر ، وأنها بجملها أقوى سلاحاً ؛ وأمضى
عزيمة ، من جريج العابد المترهب ، الذى ينزله الناس هذا المنزل الرفيع من
التقديس والاحترام ؛ والتوقير والإجلال...إذن فلا بد من ثمرة هذه الجريمة ،
وإلا فمن يدرى أنها صادقة ؟ وأن هذا الرجل العابد قد وقع فى حبالها ؟
إنها تعلم هذا ، وتعلم أنها لابد وأن تنتظر هذه الثمرة ، وأن الثمرة عما قريب
ستنزل إلى هذا الوجود ، فيغلب باطلها حق هذا العابد الزاهد ؛ وتنتصر عليه
انتصاراً باهراً ، ويكفى أن يعلم الناس من أمرها ، أنها هى التى أغرت
الزاهد ، وصرفته عن طاعة ربه . وفى هذا دعاية أى دعاية لجمالها ودلالها ؛
ووقع سحرها فى النفوس ؛ ثم لا يضيرها بعد هذا إن كان سلاحها الكذب
والافتراء ، أو غير هذا ؛ فهى لا تنظر إلى هذه التوافه ، التى يقيم

لها الناس دقيق الموازين ، ويحاسبون أنفسهم عليها حساباً عسيراً .

* * *

ومضت الأيام ، وتتابعت الشهور ، ونزل إلى الوجود ذلك المولود ،
الذى كان ينتظره بعض الناس ، وكانت ترتقبه هذه البغى اللعوب ،
وما كاد يتنفس ، ويلتقط ثديها ، حتى شاع الخبر ، وأعلنت انتصارها
وظفرها ، وأن وليدها من الراهب جريج .

من الراهب جريج ؟! من الراهب جريج ؟!

وسرت هذه العبارة مسرى البرق ؛ على الألسنة ، تتهامس بها
الأفواه حيناً ، وتجهر بها حيناً آخر ؛ ولكن عقلا من العقول لم يصدقها ،
حتى الذين كانوا يعتقدون أن جريجاً بشر من السهل أن يخطئ ؛ وأن
يقع في حبال هذه اللعوب ، حتى هؤلاء لم يصدقوا هذا الخبر ؛ ولا هذه
العبارة .. ومع هذا كله تجهروا وأخذوا البغى فى عنف وشدة ، وأقبلوا
على جريج يهدمون صومعته .. لقد نادوه ، فلم يجبهم لأنه كان فى عبادته
مقبلاً على ربه منصرفاً عنهم ، ولكن مساحيهم وفؤوسهم أخذت ترتفع
حيناً ، وتنخفض حيناً آخر ، حتى هدموا جزءاً من صومعته ، مما اضطره
إلى حديثهم ؛ والنزول إليهم ؛ فتدلى بحبل ، فانهالوا عليه سباً وشتماً وضرباً
ولكزاً ووكزاً ، حتى آلموه إيلاماً شديداً ، ووجدت النفوس الضعيفة التى
لا تتأنى حتى تعلم حقيقة الأمر ؛ وواقع الخبر ؛ منفذاً لها ، فنفذت منه إلى
دين هذا الرجل ، فنالت منه ومن كرامته ، وأنه كذاب محتال ، وأن

دينه رياء ؛ وعبادته طلاء كاذب خداع ، وأن إقباله على ربه بعد وجفاء ؛
وأن هذه اللحية المدلاة يجب أن تنتف شعرة شعرة ! .

وهكذا بقي هذا الرجل الجليل أضحوكة للضحاك ، وسخرية للساخر ،
ومع هذا لم يبد أية مقاومة ، بل اندفع معهم إلى الملك حيث يريدون أن
يذهبوا به إلى هناك .. حيث يجد جزاءه الأليم ، فإن الزانى عندهم لا بد
من قتله على أشنع صورة ..

وسار هذا الموكب الذى أخذ يتضخم ويتضخم ، ويكبر ويكبر ، ويعظم
كلما ساروا بضعة أمتار ؛ لأن كل سائر لا بد أن يسرع إليه ليرى سبب
هذا التجمع ، وليتفرج على هذا الرجل العابد ، الذى ظل أمره مكتوماً
مدة من الزمن ، حتى انكشف أمره أخيراً ، واتضح أنه زان ، ولجريمته
ثمرة تقطع الشك باليقين !! .

ومر هذا الموكب ببيوت الزوانى والمومسات ، والساقطات العاهرات ،
فلما نظر إليهن الراهب جريج ، تبسم !! .

وعجب من حوله لهذه الظاهرة ، وقال بعضهم يرميه بالفسق والفجور
والمجون فى أخرج المواقف :

— إنه لم يضحك ، حتى مر بالزوانى !! .

ليتهم عرفوا الحقيقة ؟ إذن لما فعلوا ما فعلوا ، ولما كان لهذا الرجل
بينهم وضع غير هذا الوضع ؛ ومكان غير هذا المكان .

ودخلوا على الملك ؛ ووقف جريج بين يديه ؛ وحوله من مظاهر الأبهة والجلال ؛ ما لم يحرك من نفسه ساكناً ، وإن كان قد أذهل عقول بعض الناس ، وبعث في نفسه الأماني المختلفة ، والآمال المتباينة ، فمظاهر الملك سحر وروعة ، في بعض النفوس والقلوب ، ولكنها غير ذات قيمة عند بعض النفوس والقلوب !! .

وساد الصمت ، ونظر الملك إلى الراهب جريج ، وأطال النظر ، وكأنما يقارن بين حاله الآن بين يديه من الذلة والمسكنة ، والضعفة والمهانة ، وبين حاله قبل هذا .. قبل أن يعلم أمره ، وينكشف سره .. ثم قال مخاطبه في رثاء وإشفاق :

— ويحك يا جريج ! كننا نراك خير الناس ، فأحببت هذه .

— ...

— اذهبوا به فاصلبوه .

ولم يدافع جريج عن نفسه ، فأمن الناس بوقوع الجريمة منه ، وصدّقوا هذه اللعوب البغي ، ولم يعد هناك مجال للشك .

وكل ما فعله جريج ، أنه طلب من الملك أن يمهله قليلاً ، وأن ينتظروا حتى يفرغ من عبادته ، وكان له ما أراد .. فأقبل على ربه ، وكأنما يشكو إليه هذا الظلم البين ، والعدوان القاسي ، والبهتان الأليم ، وسرعان ما اتصل ما بينه وبين ربه ؛ فشعر الناس جميعاً بالرهبة والخشية ، ووقفوا يرقبون جريجاً حتى يفرغ .

ولم يطل به الوقت ، فسرعان ما فرغ من ضراعتة ونجواه .
ثم ماذا ؟ ... ثم اتجه إلى الطفل ، وفمه في ثدى أمه يرضع في حنان
وهدوء ، وكأنه لا يعنيه من دنيا الناس شيء ، فمسح رأسه ، وقال يخاطبه
في حنان وعطف ، والناس جميعا يشهدون ذلك ، والملك يشهده :
— من أبوك يارضيع ؟ ! .

واعتقد الناس أنه قد اختل عقله ، وأدركه الجنون لفداحة المصاب ،
وعظم الكارثة ، إذ كيف يخاطب رضيعاً لا يفهم شيئاً ؟ ! .
وما كان أعظم دهشتهم حينما رأوا الطفل يترك ثدى أمه ، ويتكلم في
وضوح لا خفاء فيه :

— أبى الراعى !! .

— أبى الراعى ؟ ... أبى ... الراعى ...

ودوّت العبارة في الآذان ، وتلقفتها الألسن في سرعة وحيرة ،
وتطامنت الأعناق ، وخفضت الرؤوس ، وتخاذل الناس جميعاً ، واتضح
لهم الأمر ، وعلموا من هو جريج ؟ ! .

وأقبل الناس يقبلونه ، ويستغفرونه ، فلقد كذبت البغى ، وكادت
تقضى على الرجل وكادت تقع الكارثة . . وأصرروا على أن يدينوا صومعته
من الذهب والفضة ، ولكن هذا لا يدخل في حسابه ، فطلب أن يعيدوا
ببناء ما انهدم منها بالطين كما كان !!

وقال قائل منهم في استعطاف واحترام :

— أسألك بالله أن تقول لى مم ضحكت عندما مررت بالزوانى ؟

فأجاب جريج في خضوع وذلة :

— ماضحكت إلا من دعوة دعيتها على أمى .. أن يرينى الله وجوه

الزوانى ... !

وما كاد الناس يتمون بناء صومعته ، حتى علاها مقبلا على الله !! .
